مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

من قصبة مولاي إسماعيل إلى مدينة أزرو
مراحل النشأة وعوامل النمو والتطور

عمرو إديل
خبير جغرافي، مختبر الدراسات والأبحاث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية

د. يوسف عاشي
دكتوراه في الجغرافيا، مختبر الدراسات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية

عبد السلام بوهلال
أستاذ باحث في الجغرافيا بمختبر الدراسات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تعتبر مدينة أزرو من المدن الجبلية التي تنتمي إلى منطقة الأطلس المتوسط، حيث تتميز بثقلها الديمغرافي وديناميتها الاقتصادية، وتحتضن مصالح إدارية وبنيات تجارية وخدماتية وتجهيزات ومرافق اجتماعية، إذ انتقلت خلال بداية القرن العشرين من قصبة تقليدية إلى مدينة حديثة نتيجة تدخل سلطات الحماية التي جعلت منها مركزا لتطبيق سياساتها الاستعمارية، كما تطورت المدينة بسبب تحولات النمط الإنتاجي المحلي وانتقال ساكنة الأطلس المتوسط من النظام الرعي زراعي القائم على الانتجاع إلى نظام حياة الاستقرار، وصارت مدينة أزرو بذلك تشكل قطبًا حضريًا لكونها تستقطب الاستثمارات وتيارات الهجرة من المناطق الجبلية المجاورة. شكل تنامي ظاهرة التمدين إحدى الظواهر التي طبعت المجال المغربي، فهي تعكس التحولات العميقة التي أثرت على المجال والمجتمع، إذ لم تعدّ هذه الظاهرة تتركز بالمجالات الساحلية والمناطق السفوية، بل أصبحت تعرف تطورًا ملحوظًا بالمناطق الداخلية للبلاد كما هو الحال للمناطق الجبلية والواحية. وفي هذا الإطار، تعتبر مدينة أزرو من المراكز الجبلية بالأطلس المتوسط، حيث تتميز بقدم ظاهرة التمدين التي بدأت إرهاصاتها نهاية القرن السابع عشر خلال عهد مولاي إسماعيل الذي شيد قصبة أزرو، وتكرست هذه الظاهرة بداية القرن العشرين، حيث حظيت المدينة باهتمام خاص من طرف سلطات الحماية وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي، إذ جعلت منها مركزًا لبسط سيطرتها على منطقة الأطلس المتوسط، كما شهدت تزايدًا سكانيًا بعد الاستقلال بسبب خلخلة أنظمة الإنتاج التقليدية لدى ساكنة الأرياف، حيث انتقلت من مركز صغير إلى مدينة من الحجم المتوسط، وازدهرت أنشطتها الاقتصادية وتطورت وظائفها التجارية والإدارية، وصارت تلعب دورًا أساسيًا في تنظيم المجال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٤ فبراير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

قصبة؛ مدينة حديثة؛ سلطات الحماية؛ أزرو؛ الأطلس المتوسط

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.346069.1194

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف عاشي، عبد السلام بوهلال، عمرو إديل. "من قصبة مولاي إسماعيل إلى مدينة أزرو: مراحل النشأة وعوامل النمو والتطور".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السبعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ٤٣ – ٥٣.

Corresponding author: youssefachi2024@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

شكل تنامي ظاهرة التمدين إحدى الظواهر التي طبعت المجال المغربي، فهي تعكس التحولات العميقة التي أثرت على المجال والمجتمع[1]، إذ لم تعدّ هذه الظاهرة تتركز بالمجالات الساحلية والمناطق السفوية، بل أصبحت تعرف تطوراً ملحوظًا بالمناطق الداخلية للبلاد كما هو الحال للمناطق الجبلية والواحية. وفي هذا الإطار، تعتبر مدينة أزرو من المراكز الجبلية بالأطلس المتوسط، حيث تتميز بقدم ظاهرة التمدين التي بدأت إرهاصاتها نهاية القرن السابع عشر خلال عهد مولاي إسماعيل الذي شيد قصبة أزرو، وتكرست هذه الظاهرة بداية القرن العشرين، حيث حظيت المدينة باهتمام خاص من طرف سلطات الحماية وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي، إذ جعلت منها مركزًا لبسط سيطرتها على منطقة الأطلس المتوسط، كما شهدت تزايدًا سكانيًا بعد الاستقلال بسبب خلخلة أنظمة الإنتاج التقليدية لدى ساكنة الأرياف، حيث انتقلت من مركز صغير إلى مدينة من الحجم المتوسط، وازدهرت أنشطتها الاقتصادية وتطورت وظائفها التجارية والإدارية، وصارت تلعب دورًا أساسيًا في تنظيم المجال.

إشكالية البحث

انتقل الأطلس المتوسط من مجال تسود فيه البنيات التقليدية وتهيمن فيه ساكنة الأرياف، إلى مجال تتطور فيه مظاهر البنيات الحديثة وتتزايد فيه نسب التمدين وتنمو فيه المراكز الحضرية. ومن هذا المنطلق، شهدت مدينة أزرو نموًا ديمغرافيًا متسارعا وتطورًا عمرانيًا ملحوظًا، حيث انتقلت من قصبة تقليدية إلى مدينة حديثة، بسبب عوامل مرتبطة بتوجهات سلطات الحماية، إضافة إلى تأثر النظام الإنتاجي المحلي لساكنة المنطقة، كما ساهم موضعها الطبوغرافي وموقعها الجغرافي في تحسن جاذبيتها وتوسع مجال نفوذها، وصارت تساهم في تنظيم وهيكلة محيطها، لكونها تستقطب السكان والاستثمارات، وتحتضن بنيات إدارية وتجارية وخدماتية، وتؤدي وظائف قيادية واقتصادية.

ولطرح هذه الإشكالية، سننطلق من التساؤل التالي: إلى أي حد ساهمت العوامل المرتبطة بتاريخ وجغرافية الأطلس المتوسط في بروز وتطور مدينة أزرو؟

فرضيات البحث

إن معالجة الإشكالية المطروحة، تقتضي الانطلاق من الفرضيتين التاليتين:

- ساهمت سلطات الحماية الفرنسية في تحديث مدينة أزرو وجعلها مركزا لتطبيق سياساتها الاستعمارية؛
- تشكل مدينة أزرو قطبًا حضريًا جبليًا يرتبط نموها وتوسعها بالتحولات المجالية التي تعرفها المجالات الجبلية؛

المنهجية المتبعة

تناولنا هذه الإشكالية انطلاقا من منهجية وصفية تحليلية وتركيبية ترتكز على مقاربة جيوتاريخية تزاوج بين العناصر التالية:

- البحث البيبليوغرافي: شمل البحث البيبليوغرافي أهم الأبحاث التي أُنجزت حول المنطقة، وكذلك على أطروحات الدكتوراه والمقالات العلمية إضافة إلى الأرشيفات والتقارير والوثائق الرسمية.
- المقاربة الإحصائية: اعتمدنا على نماذج الاحصاءات التي قامت بها سلطات الحماية خلال النصف الأول من القرن العشرين، إضافة إلى الإحصاءات العامة للسكان والسكنى التي قام بها المغرب منذ الاستقلال إلى الآن.
- البحث الميداني: ارتكز على الزيارات الميدانية والتواصل مع مختلف الفاعلين الترابيين في المدينة، إضافة إلى توظيف تقنيات الملاحظة والمعاينة المباشرة والمقابلات.
- العمل التقني: اعتمدنا على نظم المعلومات الجغرافية، وخاصةً على برنامج ArcGis الذي يسمح بإنجاز الخرائط وذلك بهدف توطين مجموعة من الظواهر الجغرافية، كما عملنا على عرض بعض النتائج على شكل جداول ومبيانات، وقمنا بالتقاط عدة صور فتوغرافية، وذلك لتوظيفها في الدراسة والتحليل.

توطين مجال الدراسة

تنتمي مدينة أزرو إلى إقليم إفران بجهة فاس مكناس، حيث يقع الموضع الأصلي للمدينة بين جبلي بوطاعة جنوبًا وبويغيال شمالاً[٢]، في مجال الدير الشمالي للأطلس المتوسط الأوسط، الذي يتميز بوفرة الموارد المائية وامتداد الأراضي المنبسطة الخصبة. ومن ناحية الموقع، فالمدينة تقع في تقاطع الطريقين الوطنيتين رقم ٨ ورقم ١٣، حيث تربطها هذه المحاور الطرقية بالشبكة الحضرية للسايس (فاس، مكناس) والأطلس المتوسط (بولمان، خنيفرة، صفرو) والهضبة الوسطى (والماس، أكلموس) وملوية العُليا (زايدة، ميدلت) والجنوب الشرقي (الراشيدية).

خريطة رقم (١)

التوطين الإداري لمدينة أزرو

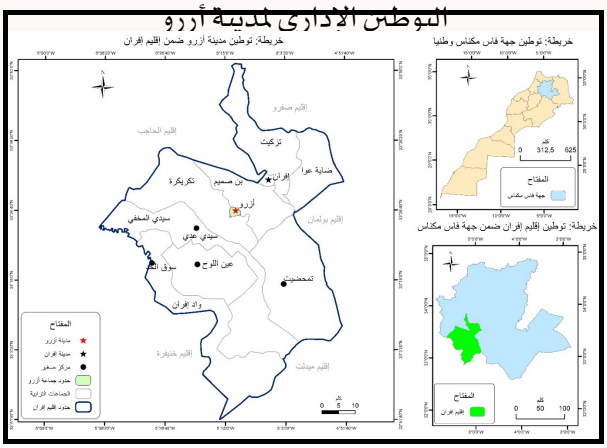

المصدر: خريطة التقسيم الجهوي للمغرب لسنة ٢٠١٥، والتقسيم الإداري لإقليم إفران، ١٩٩٢.

تعني عبارة أزرو بالأمازيغية الحجرة أو الصخرة[٣]، وكان يطلق عليها سابقا اسم "أقشمير"[٤]، وقد روى أبو القاسم الزياني أن قلعة أزرو أسسها أمير زناتة قبل الإسلام، أي أن عمرها لا يقل عن ١٥ قرنًا[٥]. ولمصطلح أزرو انتشار واسع في الطوبونيميا المغربية، فقد عدد إميل لاووست E. Laoust أكثر من ثلاثين منطقة من المغرب تحمل هذا الاسم، مشيرًا إلى أن صيغة الكلمة قد تكون أحيانا مؤنثة أو مركبة. وعندما تستعمل وحدها فالكلمة تشير إلى قرى يميزها وجود صخرة كبيرة بها أو بمقربة منها كما هو الحال لمدينة أزرو، التي ارتبط اسمها بالصخرة الضخمة التي تتوسط المدينة، والمعروفة باسم "أقشمير" وهو مرادف لكلمة "أزرو"[٦]. ويفيد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في أحداث سنة ١٢٧٦ أن السلطان يعقوب بن عبد الحق ثاني ملوك بني مرين، كان أول حاكم مغربي نزل "بجبل أزرو" بعساكره. وبهذا يكون ابن خلدون أول مؤرخ يذكر اسم "أزرو" في تاريخه، الذي كتبه نهاية القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي[٧].

صورة رقم (١)

صخرة أقشمير وسط مدينة أزرو

المصدر: التقاط شخصي، 2024.

أولاً: أزرو من القصبة التقليدية إلى المدينة الحديثة

ظروف تأسيس مدينة أزرو ومراحل نشأتها

شكلت منطقة أزرو مجال عبور للقبائل القادمة من الجنوب والجنوب الشرقي نحو الشمال والشمال الغربي، قبل أن تستقر بها اتحادية بني مكيلد الشمالية[٨] التي تعود أصولها إلى الحركات السكانية الصنهاجية والزناتية[٩]، التي توافدت على المنطقة خلال القرن الخامس عشر قادمة من الجهة الشرقية للأطلس الكبير، عبر منخفض ملوية العُليا، في اتجاه الأطلس المتوسط والمنخفضات المحيطة به غربًا، وقد ارتبط استقرارها بهذا المجال بوضعية المغرب آنذاك وأيضا بوفرة المؤهلات الطبيعية[١٠]. وقد تواصلت حركات الهجرة هذه إلى غاية القرن التاسع عشر.[١١] وفي هذا السياق، ارتبط ظهور وتطور مدينة أزرو بالمراحل التالية:

عهد السلطان مولاي إسماعيل: ويتعلق الأمر بالفترة الممتدة بين نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، حيث عمل مولاي إسماعيل على بناء سلسلة من القصبات بمجالات الدير، ارتباطا بتوسع نفوذ الزاوية

الدلائية بالمغرب التي بسطت نفوذها على الأطلس المتوسط. وفي هذا الإطار قام السلطان مولاي إسماعيل ببناء قصبة أزرو سنة ١٦٨٤ وأنزل بها جيشا يتكون من ألف فارس[١٢]، حيث تم اختيار موضع أزرو عند المضيق الواقع بين جبل بويغيال شمالا وجبل بوطاعة جنوبا الذي يتغذى من عيون تيط احسن[١٣]. وقد كانت أزرو حصنا للعديد من الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وكذلك لبعض الزوايا والمتمردين. فالموحدون اتخذوا من أزرو حصنًا لهم أثناء ملاحقتهم لجيوش المرابطين، وبقيت وظيفة الدفاع والتحصن عالقة بأزرو على مدى تاريخها الطويل. فالسلطان مولاي إسماعيل أعاد بناء القلعة الأصلية[١٤] مستفيدا من الموضع الدفاعي، وذلك لتقوية نفوذ السلطة المركزية، ولاحتواء الحركات القبلية الصنهاجية، ومن أجل تقليص النفوذ السياسي للزاوية الدلائية وتأمين الطرق التجارية[١٥].

عهد السلطان مولاي الحسن الأول: ساهم في تطوير قصبة أزرو وتمدينها رغم تفشي ظاهرة السيبة وتمرد قبائل الأطلس المتوسط على السلطان نهاية القرن التاسع عشر. ولتكريس سلطته ونفوذه، لم يكتف السلطان بالتدخلات السياسية والعسكرية، بل قام ببناء قصر تحيط به أسوار مفتوحة على الموقع الحالي للقيسارية، ومسجد شمال إغرم أقديم (الحصن القديم)، حيث شكلت أزرو ممرًا استراتيجيًا لتنقل الأشخاص والبضائع، لذلك شهدت توافد تيارات الهجرة من الجنوب الشرقي، ارتبطت بتجذر سلطة المخزن بالمنطقة، وكذلك بتطور الأنشطة الاقتصادية التي ساهمت في ظهور نواة حقيقية للمدينة، وبدأت معهم بوادر الحياة الحضرية، حيث اتجهوا إلى الاستقرار بشكل مبكر، وارتبطوا بالأرض ومارسوا الأنشطة الزراعية والتجارية[١٦] والحرفية، وازدهرت أنشطتهم من خلال تعاملهم مع أنصاف الرحل.

فترة الحماية: خضعت مدينة أزرو للحماية سنة ١٩١٣، وازدهرت حركة التمدين التي واكبت توسع الاستعمار وتنظيمه للمجال بالمنطقة خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث عرفت المرحلة الكولونيالية بناء مدينة أزرو الحديثة وتعزيز دورها كمركز استراتيجي للتحكم في الأطلس المتوسط[١٧]، إذ عملت سلطات الحماية على بناء المدينة الجديدة إلى جانب الأحياء القديمة لقصبة أزرو، وزودتها بالتجهيزات الأساسية والبنيات التحتية، وقامت بتوطين مرافق إدارية وخلق فضاءات خدماتية وتنشيط الاقتصاد المحلي لجعلها مركزا للمراقبة والاعتماد عليها في تطبيق السياسات الاستعمارية.

مرحلة الاستقلال: ورثت مدينة أزرو بنيات إدارية واقتصادية عن الفترة الاستعمارية، حيث أصبحت تؤدي وظائف قيادية في المنطقة. وقد اتسمت مرحلة الاستقلال بتزايد استقرار السكان بمدينة أزرو بسبب تزايد النمو الديموغرافي وتدفق تيارات الهجرة القروية، التي ارتفعت وثيرتها خلال النصف الثاني من القرن العشرين بفعل تأزم أوضاع الأرياف واختلال نظام الإنتاج التقليدي وتأثير ظاهرة الجفاف.

صورة رقم (٢)

الموضع الأصلي للمدينة على سفوح جبل بوطاعة

المصدر: التقاط شخصي، 2024.

ساهمت سلطات الحماية في تحويل أزرو إلى مركز جاذب ومستقطب

أدى إخضاع سلطات الحماية لمدينة أزرو إلى التأثير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وذلك من خلال بروز بنيات حديثة تمثلها المستويات التالية:

المستوى العسكري: شكلت أزرو نقطة لمراقبة وتهدئة سكان جبال الأطلس المتوسط[١٨]، حيث جعل منها المستعمر مركزا عسكريا بالنظر لموقعها المركزي والاستراتيجي والدفاعي.

المستوى الإداري: شهدت أزرو خلال هذه الفترة تشييد بنيات إدارية متعددة، وتم الارتقاء بها إلى مركز قيادة وعاصمة للدائرة. ولتكريس الهيمنة عليها، كان يتم الاعتماد على مؤسسة "اجماعة" التي تتكون من الأعيان، وتلعب دور الوسيط بين السلطات الاستعمارية والساكنة. وفي هذا الإطار، عينت الإدارة الاستعمارية قوادا على المنطقة ومنحتهم السلطة التنفيذية تحت مراقبة السلطات الاستعمارية[١٩].

المستوى التعليمي: قامت سلطات الحماية بتأسيس بنيات تعليمية حديثة أهمها المدرسة الفرنسية البربرية[٢٠] بأزرو سنة ١٩٢٤، وذلك بهدف تمكين أبناء الأعيان من مسايرة التكوين العالي، وخلق حاشية من المثقفين، وفتح المجال للبعض منهم للالتحاق بالمدرسة العسكرية بمكناس.

المستوى الديني: عملت سلطات الحماية على بناء دور ومعابد، من أهمها دير توملیلين الذي بُني على بضع كلمترات جنوب أزرو، حيث شكل أحد أكبر المراكز الدينية بالمغرب، وساهم في تطبيق السياسة الاستعمارية من خلال التظاهرات الدولية التي يحتضنها، وعن طريق الخدمات والأعمال الإنسانية التي يقدمها لسكان المنطقة.

المستوى الصحي: حظيت منطقة أزرو باهتمام السلطات الاستعمارية وذلك من خلال استحداث بنيات استشفائية لمحاربة الأمراض المزمنة والمعدية، وإتمام عمليات التهدئة لكسب ود المغاربة[٢١]. وفي هذا السياق، قامت ببناء مستشفى بن صميم شمال أزرو سنة ١٩٥٣، الذي يعتبر معلمة معمارية ذات أبعاد دولية، وشكل وجهة استشفائية مميزة بفعل خدماته المرتبطة بعلاج الأمراض التنفسية وأطلق عليه اسم "موريس بونجون Sanatorium Maurice Bonjean"، وبموجب الظهير الشريف المؤرخ في ٣١ يناير ١٩٥٣ أصبح يُدار كمؤسسة عمومية تحمل اسم "المركز الاستشفائي الأطلس المتوسط"، حيث تم تدشينه من طرف المقيم العام بالمغرب السيد فرنسوا لكوست François Lacoste والذي قال بشأن هذه المصحة "إن بناء هذه المؤسسة الصحية بمنطقة أزرو سيربط أقصى جنوب المغرب إلى حدود وجدة فيما يتعلق بمحاربة داء السل" وهو ما يعكس الأهمية الاستراتيجية للمنطقة ومركزيتها على المستوى الوطني[٢٢].

المستوى العمراني: شكلت بداية العشرينيات بوادر التوسع العمراني في مدينة أزرو، حيث وجدت الساكنة المغربية (الأهالي) نفسها نهاية العشرينات مكدسة بين أسوار إغرم أقديم وقصر آيت غريس، وتحيط بها من الغرب والشرق أحياء عصرية ذات كثافة عمرانية ضعيفة، والتي تمتد على بعض المنحدرات، ويتعلق الأمر بأحياء القشلة، بويغيال، سيدي عسو، أحداف وتيزي مولاي الحسن[٢٣]. أما فيما يتعلق بالأحياء الأوروبية، فقد عمل المعمر ابتداءً من سنة ١٩٢٠ على إنشاء بنايات لسكن الأوروبيين، أقيمت فيها مختلف الإدارات والمصالح العمومية، فظهرت بذلك أحياء جديدة تتميز بطابع معماري أوروبي وشوارع فسيحة وحدائق وبنايات مغطاة بالقرميد الأحمر[٢٤]. وقد خضعت هذه البنايات لتصاميم هندسية مضبوطة تراعي ظروف الحياة العصرية للسكان كما هو شأن المدن الأوروبية[٢٥]. وبذلك تمكنت إدارة الحماية من تحويل مركز أزرو إلى مدينة عصرية بمقومات وخصوصيات فرنسية، من خلال الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي نوعية ساكنتها وفي تصاميم بناياتها وشوارعها، وفي الأسماء التي أطلقت على المؤسسات الموجودة بها. ونتجت عن سياسة المستعمر خلق مدينتين ومجتمعين، ويتعلق الأمر بالمدينة الأوروبية والمجتمع العصري المرتبط بالنظام الرأسمالي، ثم المدينة القديمة المرتبطة بالهياكل التقليدية[٢٦]. كما شكل الفصل بين المدينة الأوروبية والمدينة القديمة إحدى أسس السياسة العمرانية الكولونيالية، وذلك من أجل مراقبة الأهالي وأيضا لإظهار التفوق والتقدم الأوروبي.

المستوى الاقتصادي: تعززت الوظائف الإدارية والعسكرية للمدينة بوظائف اقتصادية، حيث عرفت ازدهارا للأنشطة المرتبطة بالتجارة والحرف والبناء والفلاحة، والتي تتمثل في ظهور مقاولات صناعية وإمكانيات العمل المرتبط بالقطاعين الغابوي والفلاحي، إضافة إلى فرص الشغل المرتبطة بأشغال تجهيز وبناء الطرقات وقنوات السقي؛ إلا أن هذه الأنشطة الاقتصادية لم تحد من ارتفاع حجم البطالة وانتشار

الأحياء العشوائية بسبب تزايد السكان الوافدين على المدينة[٢٧]، نتيجة خلخلة سلطات الحماية للنظام الرعي زراعي، من خلال حصر أنصاف الرحل وسيطرتها على الأراضي الزراعية.

المستوى الديمغرافي: ساهمت توجهات سلطات الحماية في تثبيت الساكنة بمدينة أزرو، وانعكست سياساتها على دينامية التمدين وذلك من خلال بناء المدينة الجديدة إلى جانب قصبة أزرو، حيث تزايد حجم سكانها وتوسعت أحياؤها. وبذلك لعبت مرحلة الحماية دورا رئيسيا في صياغة إطار الحركة السكانية، حيث شكلت المحدد الرئيسي للاتجاه الديمغرافي بالمغرب.

جدول رقم (١)

بنية وتوزيع وتطور سكان أزرو خلال عهد الحماية

السكان	1926	1931	1936	1951	1960
مجموع السكان	1593	2775	3426	6726	14123
المغاربة المسلمين	1426	2503	3148	6244	13746
المغاربة اليهود	-	32	8	19	19
الأجانب	167	244	270	463	378

Source: El Belghiti Alaoui. A, 1978, op. cit., p : 84.

قامت إدارة الحماية بإحصاءات للسكان منذ بداية القرن العشرين[٢٨]، وهي المرحلة التي عرف خلالها مركز أزرو نموا ملحوظا بفعل سيطرة السلطات الاستعمارية على المناطق الجبلية، كما عرفت أزرو استقطابا لعدد من الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم بفعل المؤهلات التي تزخر بها المنطقة[٢٩]. ويرجع سبب تزايد عدد سكان أزرو إلى دور سلطات الحماية التي عملت على تأطير السكان، والاهتمام بالمدينة من خلال تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى تحسين مستواهم المعيشي والصحي، كما ساهم المعمر في خلق حركة للسكان من الأرياف نحو المدن.

ثانيًا: مدينة أزرو دينامية القطب الحضري النابض بالأطلس المتوسط الأوسط

تشهد مدينة أزرو تزايدًا سكانيًا متسارعًا

إن تمدن بوادي الأطلس المتوسط يعكس مظاهر الاختلالات التي مست بنياته الاجتماعية والاقتصادية والمجالية، إذ لم تعد المناطق الجبلية مجالات رعي زراعية، بل أصبحت تشهد دينامية عمرانية انعكست على تطور حركية التمدين، حيث تنامت المراكز الحضرية والقروية بفعل استقبالها لتيارات الهجرة القروية وليس بسبب ديناميتها الديمغرافية والاقتصادية[٣٠]. وفي هذ السياق، شكلت الهجرة القروية عنصرا حاسما في نمو مدينة أزرو، حيث شهدت تدفقا لتيارات المهاجرين من الأقاليم الجبلية المجاورة، بسبب العزلة الجغرافية وتأخر التنمية بالمجالات الهامشية لمناطق الجبل والأزغار التي يزيد من حدتها النقص الحاصل في البنيات التحتية الأساسية والتجهيزات، إضافة إلى جاذبية مدينة أزرو بالنظر إلى ديناميتها الاقتصادية والخدماتية، خاصة في ظل وعي الأسر الريفية بمميزات ومنافع الاستقرار في المدينة ورغبتها في تحسين ظروف عيشها وتدريس أبنائها وتوفير الشروط الملائمة لهم للاستفادة من المرافق العمومية.

مبيان رقم 1 : تطور حجم ساكنة مدينة أزرو بين سنتي 1900 و 2024

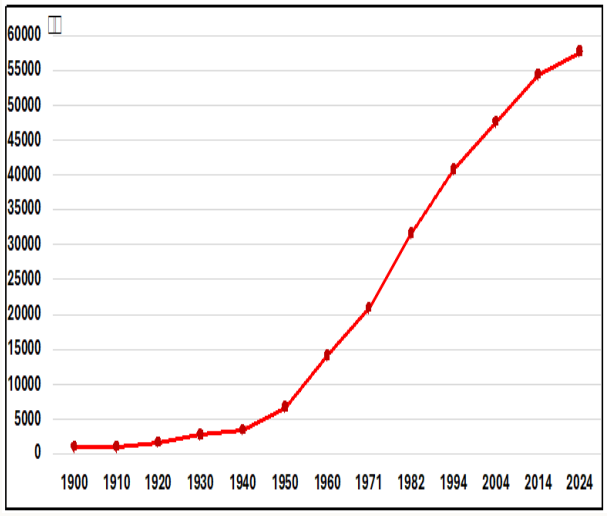

المصدر: الإحصاءات العامة للسكان والسكنى ١٩٦٠، ١٩٧١، ١٩٨٢، ١٩٩٤، ٢٠٠٤، ٢٠١٤، ٢٠٢٤.

عرف حجم سكان مدينة أزرو تزايداً ملحوظًا منذ الاستقلال، إذ تضاعفت ساكنتها حوالي أربع مرات بين سنتي ١٩٦٠ و ٢٠٢٤. حيث انتقلت من ١٤١٢٣ نسمة سنة ١٩٦٠ إلى ٥٧٦٥٧ نسمة سنة ٢٠٢٤، إذ أضيفت إليها ٤٣٥٣٤ نسمة خلال حوالي نصف قرن من الزمن، وبذلك أصبحت تضم 36 ٪ من ساكنة إقليم إفران (١٦٠٩٠٤ نسمة)[٣١].

تهيمن مدينة أزرو على البنيات التجارية والخدماتية والمصالح الإدارية

لم يعدّ الاهتمام ينصب على المدن الكبرى، فقد تحسنت وضعية المراكز الصغرى والمتوسطة بفعل تنوع تدخلات التهيئة، حيث صارت تحظى بالأهمية اللازمة ضمن سياسة إعداد التراب الوطني، إذ عرفت تطورا ملحوظا في بنياتها التحتية وتجهيزاتها ومرافقها، إضافة إلى نمو وظائفها وخدماتها الاقتصادية والتجارية. ومن هذا المنظور، فرغم أن مدينة أزرو تحتل موقعًا مركزيًا على مستوى التراب الإقليمي، وتشكل عاصمة للدائرة، إلا أنها ليست بعاصمة الإقليم، حيث تتقاسم المهام الإدارية مع مدينة إفران التي أسندت لها هذه الوظيفة منذ سنة ١٩٧٩.

جدول رقم (٢)

توزيع البنيات الإدارية والمرافق العمومية الموجودة بمدينة أزرو

البنيات	بنيات إدارية	مؤسسات تعليمية	بنيات صحية	عيادات طبية	مرافق سوسيوثقافية
العدد	24	30	6	30	4

المصدر: البحث الميداني، 2024.

تعمل هذه المصالح الإدارية والمرافق الاجتماعية على تقديم خدماتها للمرتفقين، وتساهم في استقطاب تيارات بشرية من الجماعات المجاورة لأزرو، إذ تتميز هذه الأخيرة بتعدد وظائفها وتكاملها، فإلى جانب بنياتها الإدارية المتنوعة[٣٢] فإنها تؤدي وظائف أخرى ترتبط ببنياتها الخدماتية والتجارية والتعليمية والاستشفائية والترفيهية، مما يزيد من جاذبيتها ويكرس هيمنتها على محيطها، كما أنها تحتل موقعًا متميزًا على المستوى الجهوي بالمقارنة مع مختلف المراكز الحضرية للأطلس المتوسط، بفضل الشبكة الطرقية التي تخترق المنطقة، مما يعكس إشعاعها الجهوي الذي يتجاوز حدود الإقليم.

خريطة رقم (٢)

مجال النفوذ الإداري لمدينة أزرو

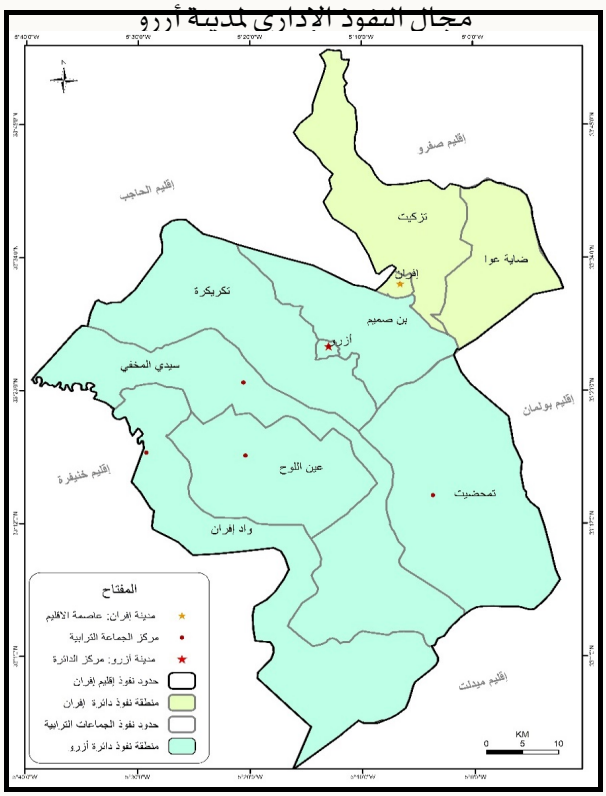

المصدر: التقسيم الإداري لإقليم إفران، ١٩٩٢.

فإذا كانت المدينة تعتبر من المنظور الماكروجغرافي لتنظيم المجال مكانًا لتركز أنشطة القطاعين الثاني والثالث[٣٣]، فإن تركز المحلات التجارية بمدينة أزرو يشكل مظهرا من مظاهر الهيمنة الحضرية على الأرياف، مما يعكس الطابع التجاري والخدماتي للمدينة.

جدول رقم (٣)
توزيع المكاتب والوكالات ذات الطابع الخدماتي بمدينة أزرو

الوكالة/ المكتب	التأمين	اتصالات	بنك	محامي	موثق/ عدل	كراء السيارات	الأسفار
العدد	7	3	17	15	8	8	3

المصدر: البحث الميداني، 2024.

تتميز مدينة أزرو بتركز الأنشطة الخدماتية، وتهيمن على استقطاب ساكنة الأرياف للاستفادة من الخدمات التي تتوفر بشكل محدود بالمراكز الصغرى، وأيضًا للاستفادة من الخدمات التي تنعدم بهذه المراكز (وكالات التأمين، الضرائب، مكاتب المحاماة والتوثيق). فالمدينة تؤدي وظائف تجارية وخدماتية مستفيدة من موقعها المركزي بإقليم إفران. كما أن تزايد الأنشطة التجارية يعكس التزايد المضطرد للسكان وتزايد الطلب على مختلف المنتوجات والخدمات.

جدول رقم (٤)
توزيع المحلات التجارية والخدماتية بمدينة أزرو

الأنشطة	العدد	الأنشطة	العدد	الأنشطة	العدد
بيع مواد غذائية	360	مقاهي ومطاعم	119	عقاقير ومواد البناء	95
ملابس وحلي	156	بيع أجهزة إلكترونية	35	بيع قطع غيار العربات	23
إصلاح أجهزة إلكترونية	45	ميكانيك السيارات	30	محلات حلاقة وحمام ومصبنة	125
خياطة	113	مكتبة	15	نجارة	77
لحامة وترصيص وقباص	42	مختبر تصوير	10	قاعة حفلات وتجميل	23

المصدر: المخطط الجماعي للتنمية لأزرو، ٢٠١٤، وبرنامج عمل جماعة أزرو، 2017، والبحث الميداني، ٢٠٢٤.

تعتبر مدينة أزرو عاصمة تجارية بالمنطقة، حيث تتميز بتعدد وتنوع المحلات التجارية وتضم لوحدها ما يقارب 1400 محلاً تجاريًا وخدماتيًا، كما تتميز المدينة بسوقها الأسبوعي الذي يكتسي شعبية وأهمية كبرى لدى ساكنة الأطلس المتوسط الأوسط، وتتوفر أيضًا على فضاء تجاري دائم بوسط المدينة القديمة (سويقة المدينة القديمة) وسوق ممتاز ومحلات تجارية للبيع بالجملة، إضافة إلى سوق بلدي ومركب تجاري للمنتوجات المستعملة (الخردة)، وسوق دائم بوسط المدينة الجديدة (سويقة أحداف) يلبي احتياجات الساكنة المحلية ويستقطب كذلك ساكنة المناطق المجاورة لكونه يعرض مختلف المنتوجات الاستهلاكية.

خريطة رقم (٣)

استقطاب مدينة أزرو ساكنة أرياف إقليم إفران للاستفادة من الخدمات والبنيات التجارية

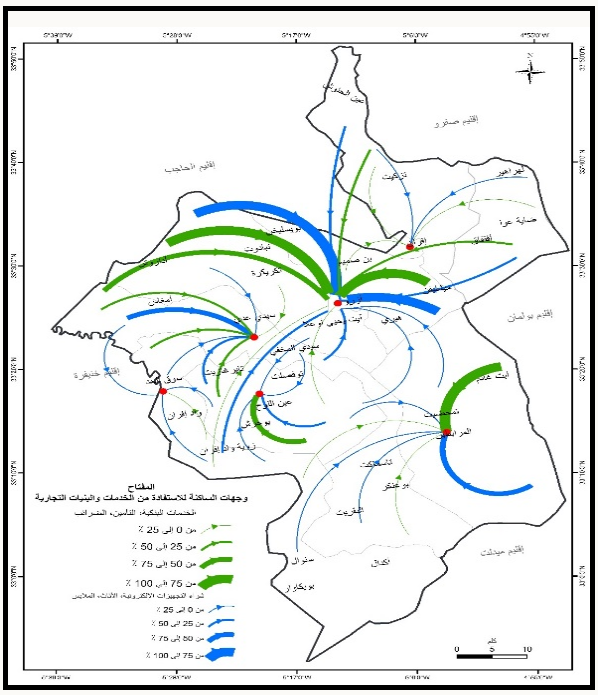

المصدر: البحث الميداني، 2024.

ثالثًا: مدينة أزرو (أشكال وإكراهات التوسع)

تواجه المدن الجبلية تحديات مجالية تتجلى أساسًا في موضعها الطبوغرافي الذي يشكل حاجزًا أمام توسعها، كما هو الحال لمدينة أزرو التي تعترضها إكراهات طبيعية وأخرى عقارية خاصة وأنها تقع بمجال الدير، مما جعلها لا تتوسع سوى في اتجاه الشمال الغربي على طول المحاور الطرقية وتتمدد على السفوح المحاذية لها[٣٤]. وفي هذا الإطار، عرفت أزرو خلال العقود الأخيرة تزايدا سكانيا، يتضح ذلك من خلال امتداد البناء على مجالات مهددة بالانزلاقات والفيضانات (حي امشرمو) وبجانب الوديان، وكذلك امتداد تجزئات سكنية على المجالات المسقية شمالاً بجماعتي تكريكرة وبن صميم[٣٥].

جدول رقم (٥)

تطور المساحة المبنية بمدينة أزرو بين سنتي ١٩٢٠ و٢٠٢٤

السنة	١٩٢٠ إلى ١٩٥٠	١٩٥٠ إلى ١٩٧٦	١٩٧٦ إلى ٢٠٠٠	٢٠٠٠ إلى ٢٠٢٤
المساحة بالهكتار	٢٥	١٧٦	٣٢٨	٣٥٤

Source : SDAU Ifrane Azrou et leur aire d'influence, 2019.

عرفت المدينة توسعًا عمرانيًا متسارعًا، لتصل المساحة المبنية إلى ٣٥٤ هكتارا سنة 2024. ورغم أن مساحة المجال الحضري لجماعة أزرو تقارب ٨٧٣ هكتارا، إلا أن الرصيد العقاري للمدينة لا يتجاوز ٢١٥ هكتارا[٣٦]. فالتوسع الذي فرضته التيارات الهجروية والدينامية الديمغرافية والاقتصادية سيؤدي إلى تغيير ملامح المدينة وتحويل مركزها من المدينة القديمة (السويقة، آيت غريس) أي من الموضع الأصلي للمدينة جنوبًا (أزرو العُليا)، إلى الأحياء الجديدة شمالاً (أزرو السفلى)؛ لكن ازدهار التعمير بأزرو سيصطدم بعدة عراقيل تتعلق بضعف الرصيد العقاري للمدينة وانتشار المجالات الزراعية والغابوية إضافة إلى الإكراهات المتعلقة بالمجالات غير الصالحة للبناء.

خريطة رقم (٤)
تطور المساحة المبنية بمدينة أزرو
بين سنتي ١٩٧٠ و٢٠٢٠

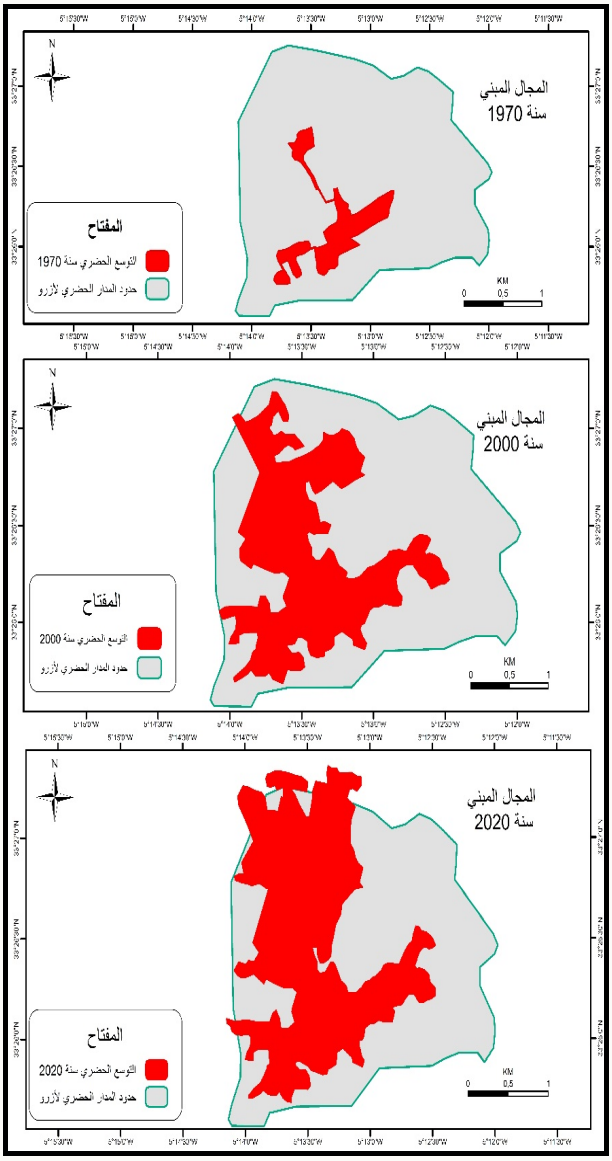

المصدر: الصور الجوية Google Earth Pro والبحث الميداني، 2024.

صورة رقم (٣)
فتح مجالات للتعمير وتوسع مدينة أزرو على حساب الأراضي الفلاحية بجماعة بن صميم

المصدر: التقاط شخصي، يوليوز، 2024.

خَاتِمَةٌ

انتقلت أزرو من قصبة تقليدية تأسست على يد السلطان مولاي إسماعيل نهاية القرن السابع عشر إلى مدينة حديثة بداية القرن العشرين، نتيجة تدخل سلطات الحماية التي ساهمت في دينامية التمدين، عن طريق خلق حركة لسكان الجبال من الأرياف نحو المراكز، وذلك لبسط سيطرتها على الأطلس المتوسط، حيث جعلت من أزرو مركزا يتوفر على بنيات تحتية وتجهيزات أساسية ومرافق عمومية، وصار هذا المركز يؤدي وظائف قيادية وتجارية وخدماتية.

أصبحت مدينة أزرو تشكل مركزًا حضريًا من الحجم المتوسط، وتلعب دورًا محوريًا في تنظيم المجال بفعل موضعها المركزي بالأطلس المتوسط وموقعها الاستراتيجي في تقاطع محاور طرقية كثيفة، الشيء الذي يمكنها من استقطاب الساكنة من الأقاليم الجبلية المجاورة، حيث تبين المؤشرات المتعلقة بتوزيع السكان والبنيات الاقتصادية مركزية مدينة أزرو في إقليم إفران، وهكذا فإن التزايد السكاني الذي عرفته أزرو خلال السنوات الأخيرة قد رافقه تزايد في بنياتها الاستشفائية والتعليمية والتجارية والخدماتية والثقافية والترفيهية لتكتسي صفة العاصمة التجارية وتكرس هيمنتها على أرياف ومراكز الإقليم.

الإحالات المرجعية:

(1) Escallier, R., 1978, La population urbaine du Maroc, étude géographique, thèse de doctorat en géographie, université de Nice, p : 1170.

(2) De Segonzac, M., 1903, Voyages au Maroc 1899-1901, Librairie Armand Colin, Paris, p : 127.

(3) Hachimi, M., 2024, Ville et villages du Maroc, étymologie, histoire et légendes, éditions Sochepress, Maroc, p : 56.

(٤) مصطلح أمازيغي ويقصد به في هذا السياق كتلة من الصخور الكبيرة أو تل صغير يتشكل من بنية صخرية بارزة، ومنها أُخذ اسم مدينة أزرو.

(٥) العربي عيسى، ٢٠٠٤، **مدينة إفران جوهرة الأطلس المتوسط ومحيطها عبر التاريخ**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ص: ٣٥.

(٦) اكنينح العربي، ١٩٩٢، مادة أزرو، **مجلة معلمة المغرب**، نشر مطابع سلا، الجزء ١، ص: ٣٤٢.

(٧) المديرية العامة للجماعات المحلية، **عمالة إقليم إفران**، برنامج عمل الجماعة الترابية أزرو، ٢٠١٧-٢٠٢١، ص: ١٨.

(٨) تسمى بني مكيلد، كما يمكن أن نجدها في بعض الكتابات الفرنسية التي اهتمت بالمجال بداية القرن العشرين مكتوبة على الشكل التالي: آيت مكيلد Ait M'Guild/ آيت ميلد Ait Myild/ آيت ميل Ait Myil/آيت مكيل Ait M'guil/ بني مكيلد Béni Mguild.

(٩) بنسي حميد، ٢٠١٥، التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية في المناطق الجبلية، حالة جماعتي بن صميم وتكريكرة "إقليم إفران"، بحث لنيل الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، ص: ٦٢.

(١٠) العربي عيسى، ٢٠٠٤، مرجع سابق، ص: ٥٨.

(١١) بنشريفة عبد اللطيف،١٩٩٢، بني مكيلد، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. مطابع سلا، ص: ١٥٧٣.

(١٢) العربي عيسى، ٢٠٠٤، مرجع سابق، ص: ٣٤.

(13) Beaudet, G., 1969, Les Béni Mguild du nord, étude géographique de l'évolution récente d'une confédération semi-nomade, In : RGM, N°15, p : 70.

(١٤) اكنينح العربي، ١٩٩٢، مرجع سابق، ص: ٣٤٣.

(15) Jennan, L., 2004, Le Moyen Atlas central et ses bordures : Mutations récentes et dynamiques rurales, éditions Al Jawahir, Fès, p : 103.

(16) Ibid., p : 64-65.

وحسب البلغيتي العلوي عائشة، توافدت على أزرو بعض الفئات من الحراطين (أصلهم من العبيد) وإقبليين من الأطلس الكبير الشرقي، وحاحا من السهول الأطلنتية.

(١٧) نعيمي مصطفى، ٢٠١٣، **منطقة أزرو على عهد الحماية ١٩١١-١٩٥٦**، الدخل، البنيات والمقاومة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، المغرب، ص: ١٠٩.

(18) Guillaume, A., 1946, les berbères marocains et la pacification de l'atlas central (1912-1933), Ed. Juillard-Sequana, Paris.

(19) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p : 76.

(20) Benhlal, M., 2005, Le collège d'Azrou, la formation d'une élite berbère civile et militaire au Maroc, édition Karthala.

(٢١) نعيمي مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: 116.

(٢٢) نعيمي مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: ١١٧-١١٨.

(٢٣) نفس المرجع، ص: ٨٣.

(٢٤) البلغيتي العلوي عائشة، ١٩٩٢، **مادة أزرو**، مجلة معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء ١، ص: ٣٤١.

(25) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p : 87.

(٢٦) نعيمي مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: ٨٨.

(27) El Belghiti Alaoui, A., 1978, op. cit., p: 85.

(٢٨) نعيمي مصطفى، ٢٠١٣، مرجع سابق، ص: ٨٩.

(٢٩) نفس المرجع، ص: ٩٤.

(30) Jennan L., 2004, op. cit., p : 630.

(31) Site institutionnel du Haut-Commissariat au Plan du Royaume du Maroc: https://www.hcp.ma/Population-legale-du-Royaume-du-Maroc-repartie-par-regions-provinces-et-prefectures-et-communes-selon-les-resultats-du_a3974.html (cosultéle: 01/01/2025)

(32) Royaume du Maroc, Ministère de l'Intérieur, Schéma Régional d'aménagement du Territoire de Fès Meknès, Rapport Final, Octobre 2017, p : 157.

(33) Beguin, H., 1974, L'organisation de l'espace au Maroc, Académie Royale des Sciences d'Outre-mer, Bruxelles, p :326.

(34) Troin J. F., (dir), 2002, Maroc : régions, pays, territoires, éd Maisonneuve & Larose, Paris, p : 216.

(35) MATNUHPV, Direction de l'urbanisme, SDAU Ifrane Azrou et leur aire d'influence, phase 3, documents de concertation réglementaire du SDAU, 2019, p : 33.

(٣٦) المديرية العامة للجماعات المحلية، **مخطط التنمية الجماعي، الجماعة الحضرية لأزرو**، عمالة إقليم إفران، منشورات جامعة الأخوين، الطبعة الأولى، يوليوز ٢٠١٤، ص: ٥٣.